من هنا نبدأ

«أما الذين يحاولون صنع الإنسان أو صنع حضارة، فلهم طريق آخر، طريق آخر كريم ونظيف» ع.ع

لم يكن يقطع عليَّ خلوتي وشرود ذهني سوىٰ الصيحات المختلطة للباعة الجائلين: «حاجة ساقعة، كازوزة؟»، «حمص، حلاوة، حَبّ العزيز؟»، «شاي؟ إوعىٰ الشاي»

كل شيء يبدو بديعًا.. أو هكذا كنت أرىٰ

نسمات الهواء العليلة تداعب شعري الناعم.. حتىٰ الأهداب لم تسلم هي الأخرىٰ من مغازلة النسيم.

قرص الشمس الذي لاح- علىٰ استحياء- بأشعته الذهبية، أشجار الفاكهة المتناثرة علىٰ طول الطريق

هناك في ركن بعيد..

يجلس رجل مكفوف بنظارته السميكة السوداء..

ما أرثَّ ثيابه.. وأندىٰ صوته..

نعم لا يجيد القراءة بالأحكام، لكن أداءه الصوتي كان بديعًا

فرصة مثالية للتدبُّر أتاحتها لي قراءته البطيئة وتكراره للآيات، وإنصات الغالبية له

يا إلهي!

آيات كأني لم أسمعها من قبل..

انصرف الرجل ومعه مبلغٌ لا بأس به من السمِّيعة، وسرعان ما انتقل إلىٰ مكان آخر مجاور

لكن.. ظل صوته الرخيم يطنُّ في أذني: [لا تدري لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا]

وعادت الثرثرة لتتسيَّد الموقف..

أمامي.. جلس طفل صغير يسأل أمه في براءة:

- مصر كبيرة قوي يا أمي؟!
- هي أكبر من بلدنا يعني؟
- طيب القَطْر ده هيوصل إمتىٰ؟

أسئلة مرهقة لم تجد الأم بُدًّا من الإجابة عليها.. باقتضاب

«اقرا الفضايح، اقرا الفضايح بنص جنيه»، صاح البائع وقد أمسك بيديه أعدادًا من صحيفة صفراء فاقع لونها.. تهافت عليها المراهقون

كنت مشغولا بالمناقشة، أخذت أقلب صفحات بحثي

أضع نفسي موضع المناقش السائل تارة، وفي موضع الكاتب المسئول تارة أخرىٰ؟!

مكالمة منير شوق[1] منذ أيام منحتني دفعة قوية، يقول إنني

(1) مدير مؤسسة (اقرأ) التي كانت تنظم مسابقة سنوية من أكبر المسابقات البحثية والإبداعية التي تحظىٰ بمشاركة كبيرة من الشباب، وكانت هذه المرة الأولىٰ التي أشارك فيها في المسابقة لعام2000م بموضوع (أبوعبيدة بن الجراح.. الرجل والسيف!!).

حصلت علىٰ المركز الأول بعد تقييم اللجنة للأبحاث..

يتبقىٰ أن أجتاز المقابلة الشفهية لأحصل علىٰ المركز الأول، حلم يراودني في كل مسابقة أشارك فيها

سعادتي لا توصف، لاسيما وقد خوّفني بعض محترفي المسابقات أمثال الصديق العزيز أحمد عبد الفتاح ممن هم أسنُّ مني من خوض التجربة لصعوبتها.. منافسة حامية الوطيس.. باحثون وكُتَّاب متمرسون ذوو خبرات كبيرة..

علىٰ إيقاع القطار كنت أَرقُب القضبان وقد امتدت كالحياة الطويلة

جلست أُخمِّن

تُرىٰ ممن تتشكل اللجنة؟!

إن منير يتكتم علىٰ التشكيل، ولا يفصح عنها كما لو كانت من الأسرار الكنسية السبعة!

***

لا أدري لِمَ تبادر إلىٰ ذهني اسم الرجل بوصفه متخصصًا في التاريخ الإسلامي، وهو الفرع الذي أشارك فيه بالمسابقة، كم جلست أدوّن ما يقوله في الإذاعة باهتمام بالغ..

عجيبٌ استيعابه للأحداث والوقائع التاريخية وإحاطته بجوانب عديدة من العلوم الإسلامية الأخرىٰ كالفقه والتفسير والفلسفة.. إلخ.

كان أسلوبه في الكلام شائقًا جذَّابا..

في النهاية قلت في نفسي: أيًا كان المناقش، فما كان مكتوبًا سيكون،

لم يكن الأمر كما تعودت،لم يستدعوننا وفقا لترتيب الحروف الهجائية

ربما راعوا المغتربين من الفلاحين أمثالي.. أو أنهم يستدعوننا بترتيب الدرجات التحريرية

المهمُ أنني كنتُ أول من ناقشَتْه اللجنة

أدخَلَني الأستاذ عبد الكريم عوض الله..

ثلاثية هي اللجنة.. الدكتور أحمد فؤاد باشا نائب رئيس جامعة القاهرة بوجهه البشوش وخصلات رأسه التي رجَّلها بعناية فائقة.

وأستاذٌ آخر.. لاح أنيقًا رغم صلعته.. عرفت فيما بعد أنه الدكتور أحمد الحسيسي وهو أستاذ للغات الشرقية بجامعة عين شمس

وكانت المفاجأة!

ها هو الدكتور عبد الحليم عويس بنفسه ضمن لجنة التحكيم!

لا أستطيع وصف سعادتي حينها.. لقد تحول الحلم إلىٰ حقيقة،

[لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا] تلوتها في نفسي..

تكفيني رؤية هذا الرجل والجلوس بين يديه، وإنْ لم أفز بأي مركز من المراكز.. قلتُ لنفسي.

قريبا من المناقشين جلس رجل صامتٌ، طويل الشعر كثيفه، أنيق الملبس في بزة كحلية اللون

كأني أعرفه، لابد أني رأيته في الصحف، فمن يكون؟!

***

بدأت اللجنة مناقشتي، وكان مولانا أول المتحدثين، وبعد السؤال عن السن والمؤهل، أبدىٰ دهشته قائلا: سنك صغير! خريج السنة اللي فاتت بس؟!

وسرعان ما بادرني بسؤال ينتظر إجابته بـ(نَعم):

ألك صديق حاصل علىٰ الدكتوراه أو الماجستير؟!

قلت: لا، ولا أعرف أحدًا

- غريبة!

- وما الغريب يا أستاذنا؟!

لم يَرُدّ، وأردف بسؤال آخر: وماذا يعمل والدك؟!

- مديرًا بالتربية والتعليم

ابتسم ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه البيضاء السوية المتراصة، ثم قال في دهاء:

- تمام، واضح مجهوده جدًا في البحث

بادرته بابتسامة ماكرة:

- فعلا، هو مَن تكفل بالتجهيزات الفنية للبحث من الكتابة والتصوير والتغليف...إلخ

بدا متشاغلا بتقليب البحث، ثم رمقني بنظرة من فوق نظارته الطبية قائلا:

- بس؟! يعني ما كتبش معاك حاجة؟!

- أبدًا، وعلىٰ فكرة أنا حاصل علىٰ الميدالية الذهبية، وقبلها

الفضية في مسابقة إعداد القادة بوزارة الشباب عن بحثين مُحكَّمين من الدكتور محمد عمارة، والدكتور إسحاق عبيد، وفزت مؤخرًا بعُمْرَة في المسابقة الإسلامية العامة ضمن عشرة فائزين فقط علىٰ مستوىٰ الجمهورية.

عندها تأكد للرجل أني مَنْ كتب البحث، ولم يُخف إعجابه بتقسيم فصوله، والمقدمة، والعتبات النَّصية، والكشَّافات التي ذيلتُهُ بها.. كان ذلك سابقة في هذه المسابقة.

جاء دور الدكتور أحمد فؤاد باشا ــ وكان رجلا ديِّنا عالي الخلق يأسر من يتعامل معه بحسن معاملته وتواضعه الجمّ، وسرعان ما انتقلت الدفة إلىٰ الدكتور الحسيسي الذي استرعىٰ انتباهه أني استخدمت الأرقام (1، 2، 3) بديلا عن الأرقام التي تسمىٰ بالعربية (1، 2، 3).

قلت: لكن هذه هي الأرقام العربية، وما تقصدها سيادتك تسمىٰ بـ(الراشيكات الهندية).

لم تكن إجابتي مقنعة له، عبثًا حاول إقناعي.. احتكم إلىٰ الدكتور عويس باعتباره أستاذًا للتاريخ والحضارة، فأيدني فيما ذهبت إليه، ومنع الدكتور فؤاد باشا حياؤه أن يُحرج المناقش الآخر، لقد رأيته وهو يهز رأسه موافقًا لي في رأيي دون كلام.

انتهت المناقشة علىٰ خير.

والتفت الدكتورُ عويس إلىٰ الرجل الصامت القابع خلف مكتبه مقترحًا عليه أن يستعين بي ضمن فريق عمل الرابطة التي يتولىٰ أمانتها.

لم أكن أدري يقينًا مَن هو، ولا ما هي مؤسسته؟!

تسرب إلىٰ أذني اسمه.. الدكتور جعفر..

نعم، الدكتور جعفر عبد السلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية والنائب الأسبق لجامعة الأزهر الذي كان حاضرًا بصفته الأمين العام لـ(مؤسسة اقرأ).

أبدىٰ الرجل موافقته علىٰ اقتراح الدكتور عويس.. وهممت بالانصراف، وقد وقع في نفسي أن أنتظر الدكتور عويس بالخارج..

وكأنه قرأ ما في نفسي، فسألني:

- إنت مسافر البلد؟!

- نعم.

- معي السائق بالخارج، أعطه رقم هاتفك.. وخذ أرقامي وعنواني في المحلة الكبرىٰ، وفي انتظار زيارتك لي.

كان العرض أكبر مما أتخيل!

ما زلتُ أذكر خفقان قلبي خفوق طائر صغير عندما أعلن عن رغبته في لقائي ثانية.

وانصرفتُ أُتمتم.. [لا تدري لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا]

ومن هنا كانت البداية....

يبدو أنها دعوة أمي!

«فالطريق إلىٰ استئناف الخيريّة واسع ميسور... لو صحت منا العزائم والنيّات».

ربما لا أستطيع وصف مشاعري بعد انتهاء المناقشة وخروجي من المؤسسة..

إن أقصىٰ ما تمنيته حينها أن أحظىٰ بمقابلة الرجل..

مجرد مقابلة تأنس منها العين، بعد أن أنست الأذن أيامًا وهي تتلقىٰ فيوضاته الماتعة عبر موجات الأثير..

ها أنذا أعود بمغانم لم أتوقعها ولم أتمنها؛ لأني ما تصورت أن تُتاح لي يومًا..

حظيتُ بوعد بوظيفة مرتقبة في وقت عزَّت فيه الوظائف، ورافقها المركز الأول بإجماع اللجنة الموقرة..

أيام قليلة وظهرت نتيجة المسابقة، وكنت الأول رغم أني أصغر المتسابقين قاطبة..

في نهاية الأمر التحقت بالرابطة، وولجت عالما جديدًا، وكان عليَّ أن أنتقل إلىٰ القاهرة؛ لأقيم مع صديقي ياسر الشاذلي الذي تعرفت إليه من خلال صديق العمر أحمد يحيىٰ..

وما تلىٰ ذلك من أيام أضيف إلىٰ دائرة حياتي الجديدة أصدقاء جدد، لاسيما أصدقاء العمل أحمد سليمان، وياسر عدوي، ثم